دلالة المصطلحات البلاغية في صحيفة "بشر بن المعتمر"

أ.فاطمة الزهراء صغير
ملحقة مغنية الجامعية
جامعة ابن بكر بلقايد تلمسان

ملخص

البلاغة ، واحدةٌ من علوم اللّغة العربيّة، تحدّدت مباحث علومها الثّلاث: علم البديع، علم المعاني، وعلم البيان، خلال عصر التّأليف، وقد سَاهمت مختلف الطبقات في تأصيل تلك العلوم، وفي مقدّمتها طبقة المعتزلة.

ويهدف هذا البحث إلى التعريف بجهود أحد أعلام المعتزلة ، إنّه "بشر بن المعتمر" (ت 210هـ) الذي خطّ صحيفة، لا تزال إلى اليوم دستورا، إليه يرجع الباحثون في مجال علم البلاغة، ولأنه ضمنّها عددا من المصطلحات البلاغية، ارتأينا العودة إليها، قصد تتبّع دلالاتها.

اللّغة العربيّة، لغة إنسانية شريفة، انتقاها الله عز وجل، لسانا لكتابه المقدس "القرآن الكريم"، فحظيت بعناية الدّارسين الذين اهتموا بكشف خبايا وأسرار النصّ القرآني.

والحقيقة أنّ الأنظار التي اتجهت صوب النّص الإلهي، تبغي الوقوف على لطائفه ونظمه وإعجازه، خصّت كذلك اللّغة التي نزل بها كلام الله بالبحث والدّراسة، لاسيما بعد توسع رقعة الدّولة الإسلامية، وفتح الأمصار، ودخول الأعاجم إليها، فولدت علوم لغوية، تضمن حصانة لغة الضّاد، منها ما يوفّر

المنارة للاستشارات

القاعدة ؛ لتُنطق صحيحة سليمة، ومنها وما يهتم بالموسيقى والإيقاع، ومنها ما ينصرف إلى الصّورة الجميلة والأنيقة، كحال البلاغة التي تعد من العلوم الشّريفة الواجب تعلّمها وإتقانها، يقول **أبو هلال العسكري** (ت 395هـ) مجلاّ علم البلاغة: **"اعلم- علّمك الله الخير، ودلّك عليه، وقيّضه لك، وجعلك من أهله أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتّحفظ- بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه- علم البلاغة ومعرفة الفصاحة التي به يُعرَف إعجاز كتاب الله تعالى"** (العسكري، ح، 2002: 08)

لقد اقترن الدّرس البلاغي إذن، بقضية إعجاز القرآن الكريم، ذلك لأنّ جميع الباحثين فيها، وعلى اختلاف طبقاتهم، تسلّحوا بقواعد علوم البلاغة، واستقوا منها أدواتهم الإجرائية، ولعلّ علماء الكلام، أكثر الفئات إثراءً للدّراسات البلاغية، خاصة طبقة المعتزلة، بحكم اتّصالهم الشّديد بالنّص القرآني، وحرصهم القوي على معرفة سرّ نظمه، وجودة تأليفه، وجمال لفظه، وروعة أسلوبه، وبعد معانيه.

وفعلا استطاع جهابذة المعتزلة بمهاراتهم، وحذقهم، وسعة ثقافتهم أن يكشفوا العديد من المسائل، ويميطوا اللّثام عن الكثير من القضايا، عارضين لنا صفوة أبحاثهم في العديد من التّصانيف والتي لا يتسع المقام هنا لذكرها جميعا، فهي مبثوثة في ثنايا المضانّ لمن يريد الاطلاع على الجهود العلمية لفرقة المعتزلة، وغيرها من الذين درسوا فكرة إعجاز القرآن الكريم (العمري، م، 1995.:39).

ونحن في هذا البحث الموجز، سنكتفي بأثر واحد، يعود لأحد رواد الفكر الاعتزالي، إنّه **بشر بن المعتمر** (ت 210هـ)، أحد أعلام المعتزلة في بغداد والذي تنسب إليه فرقة "البشرية"، هو أيضا صاحب صحيفة خالدة في البلاغة العربية، أوردها **الجاحظ** (ت 255هـ) كاملة في كتابه البيان والتبيين (الجاحظ، ع،

المنارة للاستشارات

2003: 98- 101).

إنّ هذه الصّحيفة على إيجازها، تمثل وثيقة قيّمة هامة، ارتكز عليها الباحثون في تحديدهم لأسس الإبداع، وماذا ينبغي للمبدع إذا احترف صنعة الأدب. والحقيقة أنّ ما جاء به "**بشر**" بشأن اختيار الوقت المناسب للإبداع، أكّدته الدّراسات الحديثة وأثبتته التّجربة، فالذّهن إذا كان منشغلا، والنّفس إذا كانت متعبة، عجز صاحبها عن العطاء والابتكار مهما طالت مجاهدته ومكابدته للأمر.

وإلى جانب هذا، فإنّ الصّحيفة تعرض قواعد بلاغية جليلة، كالبعد عن التّوعر والتّعقيد والغموض، إضافة إلى المزاوجة بين اللّفظ والمعنى، وأثناء إشارته إلى تلك القواعد نجده يوظّف مصطلحات بلاغية، أوردها المؤصلون للدّرس البلاغي، في أوليات البحث والتّقعيد. وعليه نتساءل: فيما إذا استعملها **بشر بن المعتمر**، بالمعنى الموضوع لها من قبل واجديها أم أنّه أكسبها دلالات ومعاني جديدة.

إنّ المطّلع على الصّحيفة، يقابله أوّل مصطلح بلاغي، يتمثل في لفظة "**بديع**" حيث قال: "**خذ من نفسك، ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إيّاك، فإنّ قليل تلك السّاعة، أكرم جوهرا وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصّدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع**"[4](الجاحظ، ع، 2003: 99).

لفظة "**بديع**" كما هو معلوم، مأخوذة من الفعل أبدع وبدع الشيء، بمعنى أنشأه وبدأه واخترعه، فالبديع لغة: الابتكار والخلق، دون إتّباع نموذج سابق، ولهذا تداولته الألسنة قبل عصر **الجاحظ** بمعنى الجديد المخترع، فها هو **الأفوه الأودي** يذكر إحدى مشتقات كلمة بديع قائلا (ابن منظور، ج الدين، 2005: 06):

المنارة للاستشارات

ولكلّ ساع سنّة ممن مضى تنمى به في سعيه أو تُبدعُ

وجاء على لسان ابن رشيق **"وأمّا البديع فهو الجديد، وأصله في الحبال، وذلك أن يفتل الحبل جديدا، ليس من قوى حبل نقضت ثم فتلت فتلا آخر".**

وفي هذا المعنى قال **الشّماخ بن ضرار** (ابن رشيق، ح، 2003: 222).

أطار عقيقه عنه نسالا وأدمج دمج ذي شطر بديع

وعليه فإنّ المصطلح بمعناه اللّغوي، موظّف ومستعمل، ونلمحه أيضا في القرآن الكريم، في قوله تعالى: **(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** (البقرة: 117).، أي أنّ العليّ القدير، أنشأها وهو أول من بدأها، دون أن يحتذي مثالا سابقا.

وشيئا فشيئا، استُعمل المصطلح بمعناه اللّغوي، للدّلالة على لون جديد من الشّعر، أكثر فيه أصحابه من الاستعارات الغريبة، وبعض الأساليب البديعية كالجناس والطباق وغيرهما، وقد أشار **الجاحظ** إلى هذا اللّون الشّعري المبتكر قائلا: **"وهذا الذي تسميه الرّواة بديعا"** (الجاحظ، ع، 2003: 99).

إنّ توظيف مثل تلك الأساليب، والصّور في ذلك الشّعر الجديد، حمل الباحثين على دراستها وجمعها وإحصائها، وأطلقوا عليها في النّهاية، مصطلح "البديع"، ومن ثم صار يعني: العلم الذي تُعرَف به الوجوه، والمزايا، التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة وتكسوه بهاءً ورونقا (الهاشمي، أ، 2003: 308).

والمتأمّل لمفهوم البديع اصطلاحا، يجد أنّ المصطلح، اكتسب معنى جديدا، بالنّظر إلى وظيفته وأثره في الكلام، وهذا المعنى، يتمثل في التّنميق والتّحسين

المنارة للاستشارات

والتّزيين، ذلك لأن أساليب البديع تعمل على توشية الكلام، بأوجه الحسن، إمّا من جهة اللّفظ، عن طريق المحسنات اللّفظية، أو من جهة المعنى عن طريق المحسنات المعنوية (حسن عباس، ف، 2008: 361).

وإذا رجعنا إلى **بشر بن المعتمر**، واستخدامه لمصطلح **"بديع"** في صحيفته، يتبين لنا أنه أراد به معنى الحسن، والجدّة، ذلك لأنّ الإبداع، وقت النّشاط، وفراغ البال، يثمر اللّفظ الشّريف الكريم، الذي ينأى عن السّوقية والوحشية، إلى جانب المعنى المبتكر الجديد والحسن، الذي يبتعد عن الابتذال، والتّداول، وهذا هو دأب الرّجل البليغ، إذ يسعى إلى إصابة المعنى وتحسين اللّفظ.

وأما المصطلح الثاني، الوارد في الصّحيفة، فإنه لصيق بالبلاغة، ذلك لأنه يتعلق بشرط من شروط تحققّها، إنه **المقام أو الحال**، يقول **بشر بن المعتمر "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال"** (الجاحظ، ع، 2003: 99).

المقام في اللّغة هو موضع القدمين، وجاءت الكلمة في القرآن الكريم: لا مقام لكم أي: لا موضع لكم، ونجد قراءة أخرى بالضّم لا مُقام لكم أي: لا إقامة لكم، ويقال المقام الكريم، والمراد المنبر، وقيل: المنزلة الحسنة.

أمّا الحال، فهي الأخرى ذات دلالة متعددة، أجملها **ابن منظور** في لسانه ومنها: الوقت الذي أنت فيه، وكنية الإنسان، وهو ما كان عليه من خير أو شر، كما تطلق على التّراب اللّين، وعلى الرّماد الحار وأيضا على اللّبد من ظهر الفرس (ابن منظور، ج الدين، 2005: 294).

وإذا أمعنا النظر في مصطلحي المقام والحال، نجد بعض القرابة بينهما، إذ نفهم من خلال الشّواهد التي ذكرها صاحب اللّسان، أنّ المقام هو الموضع، والحال هي الوضعية وهذه القرابة من جانب الاشتقاق.

المنارة للاستشارات

وبالنسبة لعلماء البلاغة، فإنّهم يعبّرون عن المقام بالحال، فالمتكلّم يراعي الوضعية التي يكون فيها أثناء كلامه، ويستخدم ما يوافقها من ألفاظ وعبارات، علما أنّ الوضعية في المقام، قد تكون غرضا من الأغراض، كالمدح أو الرّثاء أو النّصح أو التّرهيب أو الإقناع.

وبالعودة إلى الصّحيفة، يتبيّن لنا أنّ كلام "بشر" ها هنا، يتعلّق بمسألة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والتي تشكل أصلا هاما من أصول البلاغة، بل ومقياسا من مقاييسها الأساسية، وفي هذا الشأن يقول **الخطيب القزويني**: **"البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال"** (القزويني، م، 1906: 33). ولهذا اعتنى ببحثها وتقصي أهميتها بالنّسبة للكلام البليغ، كثير من الدّارسين، وفي مقدّمتهم **الجاحظ** حيث نجده يؤكد عليها في أكثر من مقام، ومن قوله "حق المعنى أنّ يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال وفقا... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم" (الجاحظ، ع، 2003: 71).

لقد انتبه **بشر بن المعتمر**، بصفته واحدا من المؤصلين في الحقل البلاغي، إلى تلك القاعدة، وأدرك ضرورتها، في جعل الكلام يتصف بالبلاغة، وهذا يعني انّه فهم مصطلح المقام أو الحال كما فهمه علماء البلاغة.

وإلى جانب هذا المصطلح، نجد مصطلحا بلاغيا آخر يتجلى في قوله "... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تُفهم معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة، التي لا تلطف عن الدّهماء، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام" (الجاحظ، ع، 2003: 99).

معلوم أنّ لفظة **"بلاغة"**، مأخوذة من الفعل الثلاثي **"بلغ"**، الذي يؤدي معنى الوصول والانتهاء، فقد جاء عن صاحب اللّسان: بلغ الشّيء يبلغ بلوغا وبلاغا:

المنارة للاستشارات

وصل وانتهى. وقد ورد هذا المعنى في قول الشّاعر (الفاخوري، ح، دت: 122):

إذا بلـغ الفطام لنا صبي تخـرّ لـه الجبـابر ساجدينا

بمعنى: إذا وصل مرحلة الفطام وانتهى إليها، كما جاءت الكلمة بالمعنى نفسه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: **(حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ)** (الكهف: 60)، وكذلك سبحانه وتعالى: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ" (الكهف: 86). أما قوله جلّ شأنه: **(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا)** (النساء: 63).، فيكشف لنا أنّ لفظة "بلاغة"، تأتي وصفا للكلام الذي يجب أن يكون شافيا، ومؤثرا في النفوس، وما يؤكد سعي البلاغة إلى التأثير، قول **أبي هلال العسكري** "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السّامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن" (العسكري، ح، 2002: 16).

إنّ قول **أبي هلال العسكري**: تبلّغ به المعنى قلب السّامع، بدلا من قوله: ذهن أو عقل السّامع، لدليل قاطع على أنّ التأثير في المتلقي، من أهمّ خصائص البلاغة.

وإذا رجعنا إلى الصّحيفة وما تضمنته من مصطلحات بلاغية، ألفينا قولة: "فإن أمكنك أنّ تبلغ من بيان لسانك..." بمعنى الإيصال، وأمّا قوله: "بلاغة قلمك ولطف مداخلك..." فإنّه قصد الكلام البليغ الذي يعكس براعة ومهارة صاحبه، وهذا يسلمنا إلى أنّ **بشر بن المعتمر**، واحد من الذين جعلوا البلاغة، وصفا للكلام، كما هي وصف للمتكلم.

ومن المصطلحات البلاغية، الماثلة أمامنا في هذه الوثيقة الهامة، مصطلح "**المشاكلة**" إذ يقول: "...والشّيء لا يحنّ، إلاّ إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات؛ لأن النّفوس لا تجود بمكنونها مع الرّغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرّهبة، كما تجود به مع الشّهوة والمحبّة (الجاحظ، ع،

المنارة للاستشارات

2003: 100).

والمشاكلة من الفعل: شاكل، يشاكل، مشاكلة بمعنى: ماثل، يماثل، مماثلة وموافقة، ومشابهة، ومن مشتقات الكلمة ما جاء في قوله تعالى: **(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)**، والمقصود على طريقته ونهجه، وشاكلة الإنسان: شكله وناحيته وطريقته (ابن منظور، ج الدين، 2005: 446)..

والمشاكلة في الحقيقة، ظاهرة لغوية، تصيب عدّة مستويات: المستوى الصوتي والمستوى النحوي والمستوى الدّلالي. فعلماء الأصوات، يعبّرون عنها بمصطلحين اثنين هما: المضارعة والمماثلة، وعلماء النّحو، يقصدون بها المجاورة، بينما عند الدّلاليين، تتصل بقضية الحال أو المقام، كما أنّ التّوافق في المستوى الدّلالي، يكون بين معنيين، وأيضا بين لفظ ومعنى (السيد، ع، 2004: 38)..

وبهذا يتّضح لنا، أنّ مصطلح المشاكلة، ظهرت ملامحه، على يد علماء البلاغة، إذ استُعمل للدّلالة على لون من ألوان البديع المعنوي، ويراد بالمشاكلة في علم البلاغة: التعبير عن الشّيء، والدّلالة عليه بلفظ غيره، شريطة أن يكون هذا اللّفظ، واقعا في صحبته، وكمثال عنها قوله تعالى: **(وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)** (الحشر، 19). والمعنى، أنّهم لما غيّبوا ذكر الله عزّ وجل، أهملهم وأشاح بوجهه الكريم عنهم. لقد ذكر سبحانه وتعالى الإهمال، بلفظ اللّسان، لأنّه واقع في صحبته.

ويبدو أن **بشر بن المعتمر**، وهو يوظّف مصطلح المشاكلة، قد أراد به المفهوم اللّغوي؛ أي: المماثلة والموافقة، ذلك لأنّ المرء لا تظهر موهبته ولا تبرز مقدرته ومهارته، إلا إذا طرق صناعة تشتهيها نفسه، ويميل إليها طبعه، وما رغب في صنعة ما، ودعته نفسه إليها، إلاّ لما بينهما من توافق وتناسب.

المنارة للاستشارات

إذن، وبعد هذه القراءة في صحيفة "بشر"، يظهر لنا سر خلودها، وتتجلّى المزية التي من أجلها عظّمها رجال البلاغة، فهي بحقّ، وثيقة مهمة لدارس البلاغة؛ إذ أنّها تشرح الطريقة المثلى للإبداع، وتكشف القواعد التي يجب أن يراعيها طالب البلاغة، والمنزلة التي توائم الفرد، بحسب ما أوتي من حذق وقدرة، فكلّ نفس، لها ما يلائمها، وما يناسبها، والعيب كلّ العيب، فيمن أقهر النّفس، وألزمها الخوض في صنعة، يعافها الطبع وتستوحشها النّفس.

إنّ هذا البحث المختصر، إطلالة لما تضمنته الصّحيفة من مصطلحات شديدة الصلّة بعلم البلاغة، وقد حصرناها في: **البديع والمقام والبلاغة والمشاكلة**، وتبقى مصطلحات أخرى، كالتي تتصل بعلم العروض، تنتظر من يتناولها بالدّراسة والبحث.

المنارة للاستشارات

التطور الدّلالي للمصطلحات البلاغية الواردة في صحيفة بشر بن المعتمر

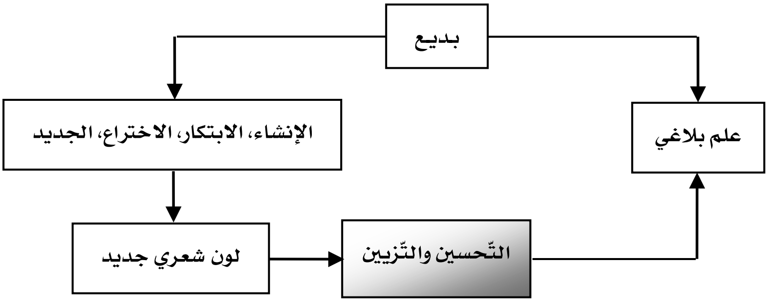

الشكل 1

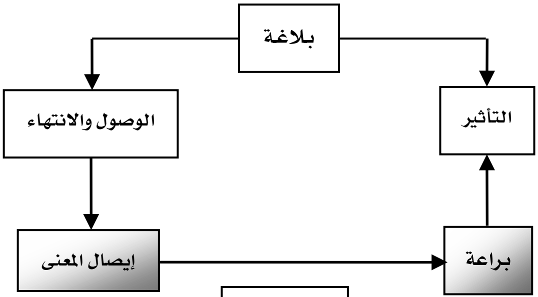

الشكل 2

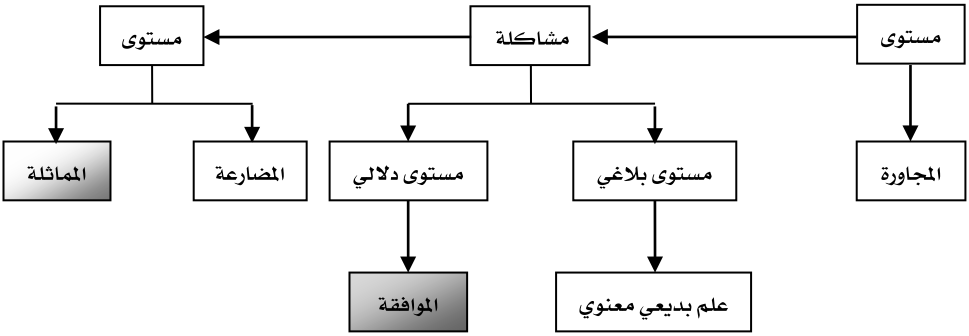

الشكل 3

دلالة المصطلحات في الصحيفة

المنارة للاستشارات

الهوامش:

❖ القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

1- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، 2003، البيان والتبيين، ط2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

2- حسن عباس فضل، 2008،أساليب البيان، د.ط، دار النفائس للنشر والتوزيع.

3- ابن رشيق الحسن،2003، العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، د.ط، بيروت، دار صادر.

4- السيّد عبد الحميد، 2004، دراسات في اللسانيات العربية، د.ط، عمان، دار الحامد للنشر والتوزيع.

5- العسكري أبو هلال الحسن، 2002، كتاب الصّناعتين، د.ط، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية.

6- العمري محمد جمال، 1995، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، د.ط، القاهرة، مكتبة الخانجي.

7- الفاخوري حنا، د.ت، تاريخ الأدب العربي، ط9، بيروت، لبنان.

8- القزويني محمد الخطيب، 1906، التلخيص في علوم البلاغة، د.ط، بيروت، دار الكتاب العربي.

9- ابن منظور جمال الدين، 2005، لسان العرب، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

10- الهاشمي أحمد، 2003، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دط، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات